خاتمة الملفّ

سعيًا إلى خطاب لاهوتيّ في محيط الشرق الأدنى

الأب فاضل سيداروس اليسوعيّ

بحثًا منّا عن خطاب لاهوتيٍّ وروحيٍّ محيطيٍّ، يمكننا التساؤل: ما الجديد الذي أتت به ندوة الهويّة/ الغيريّة؟

هذا ما حاول المشتركون فيها أن يوضّحوه في ختامها، فعبّر كلُّ واحد منهم عن قناعاته وهواجسه الشخصيّة انطلاقًا من الندوة نفسها وما سبقها من ندوات أخرى، في مثل «لاهوت الأديان»، و«بين الإيمان والثقافة»، و«بين التقليد والمعاصرة» الوارد ذكرها في مُقدّمة الملفّ.

وتستلهم «خاتمة الملفّ» هذه ما قيل في اللقاء الختاميّ تقييمًا للندوة، غير أنّها لا تتقيّد به، بل تعبّر عن قناعات لمؤلّفها وتُلزمه هو وحده.

وتتناول هذه الخاتمة جانبين متكاملين: تحديد مُحيط الشرق الأدنى لاهوتيًّا من جهة، ومجال الخطاب اللاهوتيّ من جهة أخرى. فتسعى هذه الخاتمة إلى توضيح هذين الجانبين من زاوية موضوع الهويّة/ الغيريّة، ولا بوجه عامّ.

محيط الشرق الأدنى لاهوتيًا

إنّ أيّ خطاب لاهوتيّ حديث مُموقَف في محيط مُعيّن، هو محيطيّ (contextuel) بهذا المعنى. فإن فاتَ الخطاب اللاهوتيّ هذا البُعدُ المحيطيُّ، وقع في فخّ الخطاب العامّ المجرّد النظريّ، ففَقَد بُعده الخاصّ العينيّ العمليّ. صحيح أنّ كلّ خطاب لاهوتيّ أصيل يجمع بين ما هو شموليّ (universel) وما هو عينيّ (concret)، إلّا أنّ القطب الأوّل قد طغى فعلًا على البُعد الثاني، ومن ثمّ فعلينا أن ننهض بهذا (من دون أن نهمل ذاك في مرحلة لاحقة). وهذا هو هدفنا المنشود.

وإنّ الخطاب اللاهوتيّ المحيطيّ، في ما يتعلّق بقضيّة الهويّة/ الغيريّة، يُلزم الأخذ بعين الاعتبار تعدُّديّة المحيط الشرقيّ.

فما هي معالم هذه التعدُّديّة، وما هي مُكوّناتها وأُطرها؟ إنّ الشرق الأدنى عربيُّ الثقافة، وإن لازمته ثقافات أُخرى كالثقافة الطائفيّة (من روحانيّة وليتورجيّة...) والأجنبيّة (من فرنسيّة وإنكليزيّة...). وهو إسلاميُّ الديانة، مع وجود أقلّيّات مسيحيّة. وهو طائفيُّ المذاهب، من سُنّيّين وشيعة ودُروز وعلويّين، ومن أرثوذكس يُمثّلون الأغلبيّة العدديّة وكاثوليك وبروتستانت يُمثّلون الأقلّيّة العدديّة. وهو من العالم الثالث اقتصاديًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا، حيث وضعُ الفقر والجهل والمرض يُلازم الغِنى والعِلم والتقدُّم، مع ما يترتّب على ذلك من فوارق وأحيانًا نزاعات طبقيّة صارخة بين بلد وآخر أو في داخل البلد الواحد.

فعلى كلّ حديث لاهوتيّ أن يأخذ بعين الاعتبار هذا الوضع التعدُّديّ وجميع عناصره ومقوّماته، وإلّا فقَدَ جذور هويّته من جهة، ومِصداقيّته لدى الآخرين من جهة أخرى، ووقع في فخّ المُحاكاة فاحتذى قضايا وتحاليل غريبة عن واقعه، بعيدة عنه، لا تعبّر عن حقيقته ولا حقيقة هويّته.

وعلى نقيض ذلك، فإنّ الأخذ بعين الاعتبار واقعَ هذه التعدُّديّة يجعل من الغيريّة فرصة للهويّة بأن تعرف الآخر المختلف، وبأن تتبارى

معه ومع الجماعات والفئات المختلفة، وبأن تتعاون معه...

مجال الحديث اللاهوتيّ المحيطيّ

هناك عدّة مجالات ينبغي التطرُّق إليها في خطاب لاهوتيٍّ محيطيٍّ ينطلق من قضيّة الهويّة/الغيريّة.

ونلفت النظر منذ بداية حديثنا إلى ضرورة توضيح العلاقة بين الأوقات الزمنيّة الثلاثة - الماضي والحاضر والمستقبل - في كلِّ خطاب لاهوتيٍّ محيطيّ. فالبُعد التأسيسيُّ الذي يُمثِّله الماضي لا يُمكن الاستغناء عنه، لأنّه ذاكرة الشعوب والأديان والمذاهب والطوائف، ولأنّ التاريخ هو مهد الحضارات ومُعلِّمها ومُلهمها؛ فمَن أنكر ماضيه أنكر هويّته؛ وعليه، يجب الانطلاق من النظرة التاريخيّة، ولا سيّما في الشرق الأدنى، في كلِّ جانبٍ من الجوانب التي سنعرضها. غير أنّ الماضي يصبُّ في الحاضر، وهو في خدمته، كي يتّعظ أهل الحاضر من ماضيهم وماضي منطقتهم، وإلّا أصبح الماضي صنمًا وأضحى الواقع متحجِّرًا؛ وعليه، فمن منطلق الماضي ينبغي تحليل الحاضر والإصغاء إليه؛ وجدليًّا ينبغي قراءة الماضي من منطلق الحاضر قراءة تأويليّة (herméneutique) تُفيد حاجات الحاضر ونداءاته. إلّا أنّه من الضروريِّ عدم الانحصار في الماضي والحاضر، بل الانفتاح على المستقبل من منطلقهما، فتتّح آفاق جديدة شاسعة للأجيال الصاعدة.

وبناء على هذه الملاحظة المنهجيّة، يمكننا إظهار أهمّ مجالات الخطاب اللاهوتيّ في محيط الشرق الأدنى:

١ - المجال الفكريُّ النظريّ

يتضمّن هذا المجال عدّة جماعات وفئات في الشرق الأدنى عاشته على مستويات مختلفة:

- كيف عاش المسيحيُّون علاقتهم بالمسلمين، وهؤلاء بأولئك؟ فمن المفيد التطرُّق إلى المناظرات العقائديّة المُدوَّنة في المؤلَّفات الدفاعيّة

والهجموميّة. ومثالًا على ذلك، ما دار في القرون الوسطى الحافلة بمثل هذا الفنّ الأدبيّ.

ويمكن التساؤل هل هذه النزعة الدفاعيّة هي الأسلوب الأنسب الواجب اتقاؤه اليوم، أم هناك أسلوب آخر أشدّ ملاءمة واليوم، أي الحوار بين الأديان، وقد حدّد معالمَه - من جهة الكنيسة الكاثوليكيّة - المجمعُ الڤاتيكانيّ الثاني وإرشاداتُ الباباوات وسياستهم الانفتاحيّة التي ترتّب عليها مثلًا ترقُّبُ انعقاد لقاءات دوريّة بين الأزهر والڤاتيكان (مع اشتراك شرقيّين كاثوليك)، في محاولة لتجاوز صراعات الماضي وفتح صفحة جديدة في العلاقات بين المسيحيّين والمسلمين في الألفيّة الثالثة، وللاهتمام لا بالأمور الدينيّة العقائديّة فقط بل بالقضايا البشريّة الكبرى في عالمنا المعاصر.

* كيف عاشت الكنائس الشرقيّة المختلفة تنوُّع تقاليدها اللاهوتيّة الروحيّة والكتابيّة والعقائديّة والليتورجيّة القانونيّة والأدبيّة...، وذلك في مختلف العصور، منذ عصر المجامع المسكونيّة في القرون المسيحيّة الأُولى، حتّى اليوم في محيط الشرق الأدنى؟ وإنّ ظاهرة التعدُّديّة هذه غير موجودة في الغرب الأحاديّ التقليد.

ويجب الاعتراف بأنّه لم ينشأ إلى الآن فكر لاهوتيّ يعبِّر عن التنوُّع هذا ويُحلِّله ويُظهر غناه ومخاطره. كما أنّه لم ينشأ فكر لاهوتيّ خاصّ بالشرق في ما يتعلّق بالانتماء الكنسيّ المزدوج إلى الكنيسة المحليّة والكنيسة الجامعة، ولا إلى الكنيسة الوطنيّة والوطن... فإنّ هذا المجال لا يزال مُهمَلًا في الأحاديث اللاهوتيّة.

* كيف عاشت الطوائف المسيحيّة الثلاث - الأرثوذكسيّة والكاثوليكيّة والبروتستانتيّة - علاقاتها بعضها ببعض في المناظرات الهجوميّة والدفاعيّة، وذلك في مختلف كنائس منطقة الشرق الأدنى؟

أليست مدعوّة الآن إلى الحوار المسكونيّ البنّاء الذي يجمع ما بين التمسُّك بالحقيقة من جهة، والتمسُّك بالمحبّة الأخويّة من جهة أخرى؟ أليست مدعوّة إلى الاعتراف بالآخر - بالكنائس الأخرى - أيًّا كانت

ظروف نشأتها ونموّها وانتشارها في الماضي؟ إنّ الخطوات الجريئة التي تمّت في العقود الثلاثة الماضية، والصعوبات المسكونيّة الراهنة، لَمِن القضايا الكنسيّة اللاهوتيّة - ولا السياسيّة فقط - التي تستدعي التحليل الكنسيّ اللاهوتيّ - ولا السياسيّ فقط -.

* كيف عاشت كنائس الشرق الأدنى وتعيش وضْعَ الفقر المتفشّي في المنطقة كلّها، وإن بدرجات مختلفة؟ وكيف تواجهه، لا بأعمال الرحمة فقط، بل أيضًا بالفكر اللاهوتيّ ولا سيّما لاهوت التحرير، وذلك باسم الإنجيل؟

وكيف عاشت وتعيش علاقاتها بالسلطات السياسيّة والمدنيّة، وهي تختلف بين بلد وآخر، وبين عصر وآخر؟ وما هو دور اللاهوت السياسيّ الذي أسّسه الغرب وتجاهلته الكنائس الشرقيّة بعامّة والكنائس الوطنيّة بخاصّة، بالرغم من العلاقة المتواترة بين السلطات الكنسيّة والسلطات السياسيّة في منطقة الشرق الأدنى، من علاقات وطيدة أحيانًا وعلاقات متأزّمة أحيانًا أُخرى؟ فالوضع الشرقيُّ يُحتّم نشأة فكر لاهوتيٍّ سياسيٍّ متنوّعٍ بحسب البلدان والعصور.

٢ - المجال الاجتماعيُّ - السياسيُّ العمليّ

هناك أهمّيّة قصوى في تحديد نماذج (Typologies) وأنماط (Modèles) للمواقف (Attitudes) العمليّة تجاه الآخر. فيجب إبراز مختلف هذه النماذج والأنماط في البُلدان المختلفة، وفي فترات مُعيّنة لها دلالتُها التاريخيّة ووقْعُها الحاليّ وتأثيرها المستقبليّ.

فإنّ القِيام بمِثل هذه الدراسات سيُفيد مختلف الجماعات والفئات والطبقات لتفهّم مواقفها الحاليّة في ضوء جذورها الماضية، سواء في تاريخها البعيد أو القريب، وذلك بُغية الوصول إلى توضيح مواقف سليمة تجاه الآخر، أمينة لتعاليم الإنجيل، تتعدّى ردّات الفعل الهمجيّة أو الانفعاليّة أو اللاواعية التي تُهدِّد منطقة الشرق الأدنى، فضلًا عن أنّها تخالف روح الإنجيل.

٣ - المجالُ اللاهوتيّ

يتحتّم في أوّل الأمر توضيح المفهوم الكتابيّ اللاهوتيّ الذي تتضمّنه جدليّة الهويّة/الغيريّة توضيحًا مُحكَمًا، أكان المحيط شرقيًّا أم غربيًّا.

ثمّ تُحتّم الدراسةُ البتَّ في ما إذا كانت هذه الجدليّة أداة تحليل (instrument d'analyse) سديدة وملائمة للوضع المحيطيّ، وذلك إلى جانب مفاهيم أخرى أثبتت ملاءمتها لمحيط الشرق الأدنى مِثل التقليد/المعاصَرة، الإيمان/الثقافة... والحقُّ يقال إنّ ما قامت به الندوة وما ذُكر في هذه الخاتمة يؤكّدان مدى ملاءمة جدليّة الهويّة/الغيريّة للتعبير اللاّهوتيّ عن الوضع التعدُّديّ السائد في محيط الشرق الأدنى؛ فقد فتحت المداخلات والمحاضرات آفاقًا شاسعة لم تكن في الحُسبان عند انعقاد الندوة، وتجاوزت توقُّعات المشتركين فيها. وما توصّلت إليه الندوة بدايةٌ على طريق طويل يجب شقُّه واجتيازه وتوسيعه.

٤ - المجال الروحيّ

لمّا كان المشتركون في الندوة يسوعيّين، فقد تساءلوا: «ما هي الطريقة التي تُميّزنا» (بالإسبانيّة: el nostro modo del proceder)- بحسب تعبير مؤسّسهم إغناطيوس دي لويولا - في ما يختصُّ بموقفهم الداخليّ والخارجيّ إزاء الآخر المختلف؟ وماذا يريدون دعمه في ما حولهم بشأن ما هم بصدده؟ فاستخلصوا من روحانيّتهم الإغناطيّة بعض المواقف النظريّة والعمليّة، أهمُّها:

* موقف «الحرّيّة الداخليّة»: الحرّيّة تجاه الآخر، سواء أكان هذا الآخر مُهدِّدًا أم ضعيفًا، منافسًا أم جذّابًا...، فتَجاوُزُ ردِّ الفعل الأوّل التلقائيّ الانفعاليّ. وكذلك الحرّيّة تجاه الذات من خوف وقلق بسبب الآخر المُهدِّد، أو من رغبة في تحدّي الآخر.

ويُسمّي إغناطيوس هذه الحرّيّة الداخليّة «عدم الانحياز» («الرياضات الروحيّة» عدد ٢٣). فعدم الانحياز هذا يؤول بلا أدنى شكّ إلى انقلاب جدليّ يختبره الشخص الحرُّ الذي يصبح راغبًا في أن ينمو الآخر، فردًا

كان أو جماعة؛ فكلّما نما الآخر، أصبح بدوره فرصة لنموّ الهويّة الشخصيّة أو الجماعيّة.

* موقف «الاحترام» و«العِرفان»: موقف احترام الآخر المقرون بالحياء (بالإسبانيّة Verguenza – وبالفرنسيّة: Vergogne - pudeur)، وهما فضيلتان تفتقر إليهما مجتمعاتنا. فضلًا عن العرفان لله لأنّ الآخر هديّةٌ من الله وفرصةٌ لالتقائه والتعاون معه.

* موقف حُسْن التصرُّف مع الواقع – من صِراعات وأزمات وتحدّيات مع الآخر – وحُسن إدارتها ومعالجتها-برزانة وحكمة. الأمر الذي يتطلّب «تمييزًا» (Discernement) إغناطيًّا للوضع الواجب التفاعل معه، والذي يستدعي «المحبّة البصيرة» (باللاتينيّة: Discreta Caritas) الإغناطيّة التي تُميِّز كيف التصرُّف بمحبّة في هذا الظرف وهذا المكان ومع هذا الشخص أو هذه الجماعة.

* موقف الدمج الديناميّ، بمعنى أنّ الهويّة ليست واقعًا جامدًا مستديمًا، بل هي في صيرورة مستمرّة، لا بل هي صيرورةٌ تدمج الآخر المختلف، فتدمج اشتراكها معه في التاريخ عينه، وفي الوضع الراهن، وفي التطلُّع إلى الأمام. وحيثما ينمو الآخر، تنمو الهويّة في عمليّة ديناميّة دائمة. وهذا عينه ما يختبره المتروِّض في «الرياضات الروحيّة» الإغناطيّة، ذلك بأنّه يدمج في كلّ مرحلة من مراحل الرياضة كلَّ ما سبق من مسيرة روحيّة دمجًا لولبيًّا جدليًّا يتجاوز – من دون أن ينكر أو يتجاهل – ما سبق نحو اختبار جديد.

* موقف التحاور مع الآخر الذي تنجم عنه معرفةٌ أعمق للهويّة، لأنّ الاحتكاك بالآخر يُظهر حقيقة الهويّة. وتنتج أيضًا عنه معرفة أعمق للحقيقة، لأنّ لا أحد يمتلك الحقيقة بل الحقيقة تمتلكه، فيريد أن يُشرك الآخر فيها. ولقد وضع إغناطيوس قاعدة ذهبيّة للتحاور، يا ليتها تُلهم جميع الحوارات بين الأديان والمذاهب والطوائف والجماعات:

«لكي يجد كلٌّ من المرشد والمتروِّض مزيدًا من التعاون والفائدة

يجب الافتراض السابق أنّ المسيحيّ الصالح
لا بُدّ أن يكون إلى تبرير فكرة القريب
أسرع منه إلى الحُكم عليها.
فإن تعذّر عليه تبريرها
فليُسأل صاحبُها كيف يفهمها.
فإن كان فهمه غير صحيح
فليُصلَح بحُبّ.
وإن لم يكن ذلك كافيًا
فليُبحث عن جميع الوسائل المناسبة
لكي يفهم القريبُ الفكرة فهمًا حسنًا
فيخلُص» («الرياضات الروحيّة» عدد ٢٢).